رسالة جامعة في جواب الشبهات المتعلقة
بالأجنة وماء الرجل والمرأة
ووصية منهجية نافعة

أبو الفداء ابن مسعود
غفر الله له

الحمد لله وحده أما بعد، فهذه رسالة كتبتها على الخاص، جوابا لأسئلة طرحت علي بشأن شبهات الملاحدة والمنصرين على المسائل المتعلقة بأطوار الجنين وماء المرأة وهذه الأمور، كتبتها، ثم ألفيتها جامعة نافعة إن شاء الله تعالى، فأحببت أن أنشرها ها هنا لتعم بها الفائدة، والله الموفق لما يحب ويرضى.

قلت فيها، بتصرف يسير:

فهذه رسالة جامعة تزيل عنك، إن شاء الله تعالى، جميع هذه الأنواع من الشبهات والإشكالات إزالة كلية تامة، وتعينك على جعلها تحت قدميك، مهما قال فيها من قال ما شاء، وبقطع النظر في التفصيلات ومعاني الألفاظ وهذه الأمور! فإن التعلق بالأصول الراسخة، وتذكير النفس بها عند التعرض للشبهة من هذا الصنف، هو أقوى ما تنقض به تلك الشبهة من غير حاجة حتى إلى الخوض في تفصيلها بوجه ما. فالقاعدة العقلية الكبرى التي لا يرتاب في صحتها عاقل صادق النفس سوي السريرة، هي أن ما ثبت أصله باليقين القاطع والبداهة والفطرة الجلية، لا يزول، أو يزال عنه، بالشك أو بالجهل أو بالحيرة في فهم فرع من فروعه! ما معنى هذا الكلام؟

عندنا هنا قضية أصل وقضية فرع.

قضية الأصل هي صدق ملة الإسلام وصحة دين التوحيد وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

قضية الفرع هي مطابقة ما جاء به الخبر للواقع في مسألة سبب الشبه بين الولد وأبويه وما يتحدد به نوعه في رحم الأم.

القضية الأولى، الأصلية، عندنا فيها من الدلائل الفطرية والعقلية والحسية والعادية ما لا ينفيه إلا مجرم جاحد مقطوع بفساد طويته وغلبة الهوى على عقله!

وأما القضية الثانية، ففيها ألفاظ مجملة لم يأت النص بتفصيلها، وفي تفصيلها من التغييب الجزئي المطلق أو النسبي، مهما انكشف لنا منها ما انكشف، ما لا يماري فيه إلا مكابر!

ما معنى وحقيقة قوله عليه السلام "فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة" أو إذا سبقه؟؟ علاه في أي محل؟ وسبقه إلى أي شيء؟؟ لا ندري! الألفاظ جاءت بها السنة مجملة وتركتها على إجمالها، فوجب الإيمان بها على إجمالها دون طلب التفصيل! حتى حقيقة المراد بماء المرأة لا نعرفه. كانت النساء في زمان التنزيل ومن قبله ومن بعده وإلى اليوم، يشتبه عليهن عدة أنواع من الماء أحيانا، خلافا للرجل! فالذين قالوا إن المرأة لا "ماء" لها، وأن العلم اليوم قد كشف ذلك، هؤلاء يعارضون السنة بما لو صح لوُجد من يعترض به عليها في زمان النبوة! لماذا؟ لأنه كان ولم يزل معلوما من قديم وإلى اليوم أن النساء لا تدفقن منيا في الجماع كما يدفقه الرجل، إلا فيما يندر جدا!!

فلا شك أن الصحابة لم يفهموا من الماء الذي يؤثر في نوع الجنين وفي شبهه، ما يزعم هؤلاء أنه هو المراد منه!

فما الذي فهموه إذن على وجه التفصيل؟ الجواب أنهم لم يفهموا هذه النصوص على وجه التفصيل أصلا، حتى نطلب نحن ذلك اليوم، ونقول المقصود الكروموسومات التي توجد في كذا أو في سائل كذا أو كذا، ويوجد نظيرها في الرجل في مائه الدافق! ولا يبعد أن يكون العلو أو السبق الذي جاء به الخبر، حقيقة لم تزل مغيبة إلى الآن، تغييبا نسبيا، وربما يكون تغييبها مطلقا، بحيث أنه لن يشهده أحد أبدا، وإنما يشهدون ما يلازمه من اندماج الحامض النووي للمرأة بحامض الرجل في البويضة المخصبة، إذا شهدوه! والمسلم يعلم ويقطع بأنه ما أوتي البشر من العلم إلا قليلا على أي حال، وأن ما في الغيب من أسباب الحوادث المحسوسة، أعظم وأكثر مما هو محسوس مشاهد منها، وهذا عام في كل شيء، فكيف بعملية هي في الأصل مغيبة في ظلمات ثلاث؟

جريان الماء وجمعه وعلوه وحضوره وسبقه وهذه الأمور، هذه كلها فيها أمور كانت ولم تزل مغيبة إلى اليوم! ويشهد لذلك، على سبيل المثال، ما عند الترمذي وغيره من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه أن النبي عليه السلام قال: إذا أراد اللهُ جلَّ ذكرُه أن يخلُقَ النَّسَمةَ، فجامَع الرجلُ المرأةَ؛ طار

ماؤُه في كل عرقٍ وعصبٍ منها (وفي لفظ في كل عرق وعضو منها)، فإذا كان يومُ السابعِ؛ أحضر اللهُ له كلَّ عِرقٍ بينه وبين آدمَ، ثم قرأ : فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ" قلت، فبعيدا عن أن المقصود بالعرق والعصب في لغة العرب ليس هو العروق والشرايين ولا الأعصاب التي يصطلح عليها الأطباء والتجريبيون اليوم، فإنه من الواضح جدا أن هذا الطيران الذي أخبر به النبي عليه السلام لماء الرجل في جسد المرأة، ليس بحيث أن القدر المشاهد المحسوس لنا من جرمه هو الذي يقع له ذلك! وهذا كان واضحا ولابد لمن كانوا قبلنا كما هو واضح لنا اليوم، إذ لا يخفى أن المرأة لا تجد ما هو مشاهد معتاد من مني الرجل في أنفها ولا في أذنها ولا في فمها ولا في عينيها ولا في دمها بعد الجماع!! أليس قد قال إنه يطير في كل عرق وعصب وعضو منها؟؟ بلى! فما حقيقة ذلك؟ الله أعلم.

فأمر الماء هذا فيه ولا شك ما كان ولم يزل مغيبا عن حواسنا، فلا يثبت ولا ينتفي من القدر المحسوس والمعتاد لنا اليوم، كما لم يتأثر ثبوتا وانتفاء بما كان محسوسا ومعتادا للمسلمين في القرون الخالية!

والقصد أني لا أدري، كما أن السلف من قبل لم يعلموا، ما حقيقة العلو أو السبق الذي جاء النص به، وأخبر بأنه هو سبب التذكير أو التأنيث وسبب الشبه للوالد أو للوالدة! ولا يضرني أبدا في ديني ألا أدري، كما لم يضرهم

من قبل! فإن كان تفصيل ما جاء به الخبر في هذه النصوص، بحيث يوافق ما عليه التجريبيون اليوم في نفس الأمر، هو ما ينتظره من يسألونني في هذه الشبهات، فلن يجدوه عندي!

وما عند غيري من ذلك فرجم بالغيب ورمي في عماية لا محالة!

وهذه هي القضية المنهجية التي أريد الوصول إليها هنا: أن جهلي وجهل عموم المسلمين بحقيقة المراد من علو ما سماه النبي عليه السلام في هذه النصوص بماء المرأة على ماء الرجل أو العكس، لا يضرنا في ديننا بشيء البتة، ولا يوصل منه بحال من الأحوال، ولا في عقل أي عاقل، إلى إسقاط أو توهين الأصول الراسخة العظيمة التي ثبتت في قلوبنا وبها عرفنا صدق النبي عليه السلام وصحة دين الإسلام وبطلان كل ملة وكل فلسفة واهية تخالفه!!

نعم نؤمن بأن للمرأة ماء يميل إلى الصفرة قد يخرج منها حال الجماع والاحتلام وقد لا يخرج، وبأن ذلك الماء فيه ما يكون سببا في هذه الأمور التي أخبر النبي عليه السلام بأنه يكون سببا فيها، عند التقائه بماء الرجل في الجماع! نؤمن بذلك ونقطع به، كما آمنا بما هو أغرب منه وأعجب، وفيه من محارات العقل ما هو أشد، كما يروى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه لما سئل عن الإسراء والمعراج قال: "إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه

بخبر السماء"! فما الذي سلكه أبو بكر رضي الله عنه في ذلك الموطن؟؟ اتبع ما دلته عليه فطرته وبداهته وجميع أسباب العقل والحس عنده، من صدق النبي عليه السلام، فقال صدقته فيما هو أعظم، فهذا لاحق به ولا إشكال! لم يجعل، رضي الله عنه، من استغراب واقعة معينة جاء خبرها عنه عليه السلام، سببا في رد أصل تصديقه كله أو إسقاطه، فإن العقل يؤسس الإيمان بالغريب والعجيب والمحير من الأخبار، على أسباب تصديق النبي عليه السلام في أصل رسالته، تلك الأصول القاطعة العظيمة المترسخة فيه سلفا، لا أنه يشكك في تلك الأصول الرواسي نفسها أو تدخله الريبة فيها، بسبب استغراب هذه الرواية أو تلك، أو غموض هذا اللفظ أو ذاك!! هذا خلف بين وقلب لعمل العقل!

ولهذا قلت من قبل وأقول إن المؤمن سليم النفس صحيح الإيمان صحيح العقل، لا تهزه الشبهات أبدا مهما تكاثرت عليه، ولا يكترث بها، بل ولو كمل إيمانه لما تكلف أصلا محاولة الرد عليها! لماذا؟ لأن صاحب الشبهة إنما يريد أن يجري بعقل من يسمعه على عكس ما عليه عمل العقل السوي الصحيح! يريد أن يقنعك، مثلا، بصحة إلحاده، أو بصحة نصرانيته، وبطلان الإسلام في المقابل، بناء على لفظة اشتبهت عليه هو في نصوص الوحيين، أو على قضية غيبية فيها غرابة ولا ندري كيف نوفق بينها وبين ما انتهى إليه

التجريبيون اليوم من تتبع لما يجري في رحم المرأة عند حصول الحمل!! وهذا محض سفه وسخافة! تريدني أن أخرج من يقيني التام بوجود من خلقني، أو عن علمي الجازم بأنه لا يمكن أن يخرج إنسان يدعي النبوة لرب العالمين، ويأتي بدعوة التوحيد الخالص التام التي جاء بها النبي عليه السلام، ويكون مع ذلك كاذبا فيما يدعي، وأن أنتقل عن جميع أسباب تصديقه والإيمان به عندي، لمجرد أني لا أدري ما حقيقة المراد بماء المرأة وعلوه على ماء الرجل، أو لا أدري كيف أوفق بين ما جاء به القرآن في مراحل نمو الجنين، وما جاء به التجريبيون في منتهى بحثهم؟؟ والله لا يضيرني ألا أدري، طرفة عين!! أبدا! ولا يؤثر في إيماني شيئا!

مسألة الأربعين يوما، للعلماء وشراح الحديث كلام مشهور في جمع النصوص فيها، لا نعلم خلافا بينهم عليه! قال الإمام النووي في شرح مسلم: " قال العلماء : طريق الجمع بين هذه الروايات أن للملك ملازمة ومراعاة لحال النطفة ، وأنه يقول : يا رب هذه علقة ، هذه مضغة ، في أوقاتها . فكل وقت يقول فيه ما صارت إليه بأمر الله تعالى ، وهو أعلم سبحانه ، ولكلام الملك وتصرفه أوقات : أحدها حين يخلقها الله تعالى نطفة ، ثم ينقلها علقة ، وهو أول علم الملك بأنه ولد ; لأنه ليس كل نطفة تصير ولدا ، وذلك عقب الأربعين الأولى ، وحينئذ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته أو سعادته ، ثم

للملك فيه تصرف آخر في وقت آخر ، وهو تصويره وخلق سمعه وبصره وجلده وعظمه ، وكونه ذكرا أم أنثى ، وذلك إنما يكون في الأربعين الثالثة ، وهي مدة المضغة ، وقبل انقضاء هذه الأربعين ، وقبل نفخ الروح فيه ; لأن نفخ الروح لا يكون إلا بعد تمام صورته. وأما قوله في إحدى الروايات" فإذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول : يا رب أجله ، فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، وذكر رزقه " ، قال القاضي وغيره : ليس هو على ظاهره ، ولا يصح حمله على ظاهره ، بل المراد بتصويرها وخلق سمعها إلى آخره أنه يكتب ذلك ، ثم يفعله في وقت آخر ; لأن التصوير عقب الأربعين الأولى غير موجود في العادة ، وإنما يقع في الأربعين الثالثة، وهي مدة المضغة كما قال الله تعالى : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم يكون للملك فيه تصوير آخر ، وهو وقت نفخ الروح عقب الأربعين الثالثة حين يكمل له أربعة أشهر. واتفق العلماء على أن نفخ الروح لا يكون إلا بعد أربعة أشهر" إلى آخر ما قال رحمه الله.

قلت فهو يبقى أربعين يوما نطفة أو ما في حكمها، وهذا لا يخالف ما عند علماء الأجنة، لأنهم يقولون إنه يكون بعد الأربعين الأولى شيئا لا يكاد يجاوز

طوله المليمتر الواحد! ثم إنه يكون علقة لأربعين أخرى، وهي ما يكون في تمامها في ابتداء صفة المضغة، لا يجاوز طوله الأربعة سنتيمترات، وتكون أعضاؤه قد امتازت عن بعضها البعض إجمالا، وظهر له ما يمكن تمييزه على أنه الأطراف والأصابع .. إلخ، فهي إذن مضغة في هيئة الجنين المعروفة، فتظل تنمو، من حيث هي في منزلة المضغة، حتى تبلغ في الشهر الرابع طولا يجاوز العشر سنتيمترات بقليل، ثم بعد ذلك يأخذ الجنين في النمو سريعا، كما هو معلوم. فأين المعارضة؟؟ أيظنون أننا كنا نعتقد أنه يكون على صورة واحدة أربعين يوما، من أولها إلى آخرها، ثم إذا تمت، تحول فجأة إلى صورة أخرى تبقى لأربعين أخرى بلا تغير، ثم إذا تمت، تحول فجأة إلى صورة ثالثة في ابتداء الشهر الرابع؟؟ لا والله! لم يقل هذا أبدا عالم من علماء الأمة، ولا فهموا النصوص على تلك الصورة!

ثم من ذا الذي زعم أن الجنين يتم خلقه بعد الأربعين الأولى؟؟ لا عندنا هذا ولا عند التجريبيين! وإنما يقولون إنه بعد الأسبوع الثاني عشر (أي عند ابتداء مرحلة المضغة) يكون بحيث قد اكتملت أعضاؤه وأطرافه، وإن كانت صورته شائهة، هي أشبه فعلا بالعلكة الممضوغة كما قال بعض العلماء في معنى المضغة! فهذا التفصيل لم تتطرق إليه النصوص عندنا أصلا! والتجريبيون على أي حال مهما علموا ومهما شهدوا، فلا يرون إلا قليلا،

ويخطئون بقدر ما يصيبون، فمهما ظنوا أنهم قد أبطلوا ما في السنة عندنا فلا عبرة بما يظنون!

وكذلك مسألة العلقة، أكثر المفسرين قالوا إنها تكون دما عالقا، فهل يعني هذا أنها لا تكون إلا دما مثلا؟؟ أبدا! بل هو دم مع غيره قطعا، مما تتخلق المراحل التالية منه جميعا، لكن الدم يكون هو الأكثر! وهذا لا يخالفه التجريبيون ولا يستطيعون! ثم هل دل الحس على أنها لا يكون فيها (أعني العلقة) دم البتة؟؟ أبدا! بل دل فيما قرأت على أنها يكون فيها دم راكد كثير في مراحلها الأولى! فأين التعارض أو مخالفة المحسوس في كلام المفسرين؟؟ بل فوق هذا: أين ما يجعل عاقلا يدخل إلى نفسه التشكيك في صدق دين الإسلام نفسه، وأصل دعوة التوحيد نفسها، لصالح تلك الملل التي يدعوننا إليها؟؟؟

سبحان الله! لا يقع هذا أبدا ولا يمكن أن يقع!

فهذه هي القاعدة التي أوصيك بها، بارك الله فيك! ذكر نفسك عند التعرض لأمثال تلك الشبهات، بل والله لا تبلغ أن تكون شبهات وإنما هي أسئلة فقط! ذكر نفسك بأن أسباب يقينك في صحة دين الإسلام وفي أنه لا يمكن أن يكون دينا باطلا، أو أن يكون الإلحاد هو الحق، لا يمكن – عقلا – أن تتأثر بأمثال

تلك الأسئلة! فإن السؤال غايته أن يبقى سؤالا معلقا، فلا يؤثر الجهل بجوابه على ما هو معلوم سلفا، مقطوع به قطعا من أصول الإيمان في النفس! جهل أحدنا بتفصيل الفرع، لا يزيل ما عنده من الجزم بصحة الأصل الكلي الذي هو سبب التصديق والإيمان بهذا الدين أصالة! ولهذا فيقال لصاحب الشبهة: لو صدقت لتركت هذه المسائل، ولنظرت إلى أصل الأمر وإلى سبب اعتراضنا على ملتك ودعوتنا إياك للخروج منها والدخول فيما نحن فيه!! أنت رجل تبيت تعبد بشرا مثلك، تدعوه من دون الله تعالى، ثم إذا دعوناك للإسلام، قابلتنا بأن عندنا "غلطا" في القرآن في مسألة الأجنة؟؟ تخلص يا رجل من مصيبة الشرك والسباب الفاحش الذي تعيش عليه لرب العالمين، الذي تهتز منه الجبال وتكاد الأرض أن تنشق لأجله، وادخل في التوحيد الذي هو حق الباري على خلقه، بضرورة العقل وبداهته، ثم لا يضرك هل وجدت بعدئذ جوابا لمسألة الأجنة هذه أم لم تجد!

فإن العاقل يقطع، ويجب عليه أن يقطع، بأنه لا يمكن الحكم بأن القرآن يخالف الواقع فيها أو في غيرها، أو أن السنة الصحيحة تصادم ما هو مقطوع به في تلك الأبواب أو في غيرها! لماذا لا يمكن؟ لأن سبب المعرفة بصدق القرآن ليس مبنيا على ذلك الموضع ونحوه عندنا! وإنما هو مبني على أسباب كثيرة مستفيضة، تبدأ من موضوع الكتاب نفسه وطبيعة دعوته من الأصل! فأنا أقطع من قبل أن أسمع ما عند التجريبيين، بأنهم محال أن يقفوا على مشاهدة

تبطل ما في هذه النصوص! لا أحتاج لأن ألتف حول النص بالتأويل أو أتلاعب به بإدخال تفصيل عليه لم يأت به السمع، حتى أثبت أنه لا يخالف المحسوس والمشاهد! من الواضح حتى للصحابة أنفسهم أن الكلام في مسألة علو ماء المرأة أو الرجل هذه يتناول مسألة غيبية لا يظهر منها للناس شيء أصلا، فإذا وقف التجريبيون على حوادث معينة شاهدوها وشهدوا لها تعلقا سببيا ما بنوع الجنين أو بمشابهته للوالد أو للوالدة، فلا يكون ما توصلوا إليه منافيا لما لم نزل نحن نؤمن به من سبب مغيب، وإنما يكون إضافة إليه، إذا سلمنا لهم بصحته في نفسه. نقول بذلك ونمضي، دون أن نحمل نصوصنا ما لا تحتمل! وكذلك في نظائر تلك المسألة.

فهذا ما أوصيك به، أن تذكر نفسك بأن غموض وغرابة فرع من الفروع الخبرية في الدين، لا يكون، ولا يبلغ أبدا أن يكون حجة يُعترض بها في العقل الصحيح والنفس السوية، على اليقين الراسخ في الأصل الأول لنفس الدين!

ولهذا التأصيل ارتباط وتعلق بمسلك يسلكه بعض الناس في دعوة النصارى، ولعل كثيرا من المنصرين يسلكون توليد تلك الشبهات على نصوصنا من باب رد الفعل في مقابل ما يسلكه هؤلاء معهم! تراهم يدخلون إليهم من نص من نصوص كتبهم، يخرجونه ثم يوردون عليه الإشكالات، سواء من جهة اللغة أو من جهة المحسوس والمشاهد أو غير ذلك، ثم يقولون: لو صدق كتابكم

لوجب ألا نجد هذا الإشكال فيه! وأذكر أني سمعت مناظرة قبل سنوات طويلة لشاب من دعاة البال توك، اسمه وسام عبد الله على ما أذكر، استمرت لست ساعات متصلة، مع القس عبد المسيح بسيط، وهو من علماء النصارى في مصر، يريد أن يقنعه بأن معاني كلمات معينة في نصوصهم لا تعني ما يزعمون أنها تعنيه! الأخ المسلم يريد أن يقنع الحضور من النصارى في تلك الغرفة في ذلك اليوم، بأنه أعلم من عالمهم وكبيرهم بمعاني ألفاظ كتابهم!! إي وربي، كذا أراد!! فماذا كان؟؟ كان أن جلس مجلس التلميذ بين يديه، تقريبا، وانتهى الرجل بأن قال له لا مانع عندي من أن نعقد أمثال هذه المجالس مرة بعد مرة، حتى يتعلم الناس كيف نفهم نصوصنا!! يا رجل أنت تريد أن تدعو أناسا يعبدون ثلاثة آلهة مع كونهم يزعمونهم إلها واحدا، للخروج من ذلك إلى التوحيد، فما الذي يدخلك في ذلك العبث؟؟ ما داموا قد قبلوا تلك العقائد الكبرى في أصل الدين، فهذا وحده يكفي دليلا على صدق ما ندعيه من أن كتبهم قد حرفت! فاعمد إلى تلك الأصول الكبرى نفسها واشتغل عليها! وهذا ما جاء به القرآن تحقيقا! لم نر في القرآن نقضا، مثلا، لنص بعينه من نصوصهم، يبين أنه يناقض نصا آخر في نسخة أخرى من نسخ كتابهم، أو في كتاب آخر من كتبهم الأربعة القانونية، أو نحو ذلك! وإنما رأيناه يشنع عليهم قولهم ثلاثة، وقولهم إن الله هو المسيح ابن مريم!! القضية الكبرى التي ينبني عليها الدين واضحة جلية جدا، لا تلتبس على عاقل!

فهذا هو الأصل أو القاعدة التي أردت أن أبدأ بتأسيسها عندك أولا.

وأما ثانيا، فأوصيك بألا ترجع إلى البحث في أمثال تلك الشبهات أبدا ولا تشتغل بها! فارق الموقع أو الصفحة التي نقلت إلي منها هذه الشبهات، بارك الله فيك، ولا ترجع إليها أبدا، مهما حدثتك نفسك بالدخول إليها! فإن الشبهات أخاذة، والميول قد تتقلب، نسأل الله التثبيت.

هذا غاية ما عندي فيما سألتني عنه، وما أحببت أن أوصيك به، والحمد لله أولا وآخرا.

كتبه أبو الفداء حسام بن مسعود

غفر الله له

تحريرا في التاسع والعشرين من محرم، ١٤٤٧ من الهجرة.